الثور والطحين

قصة قصيرة

زكـريا الشـافعى

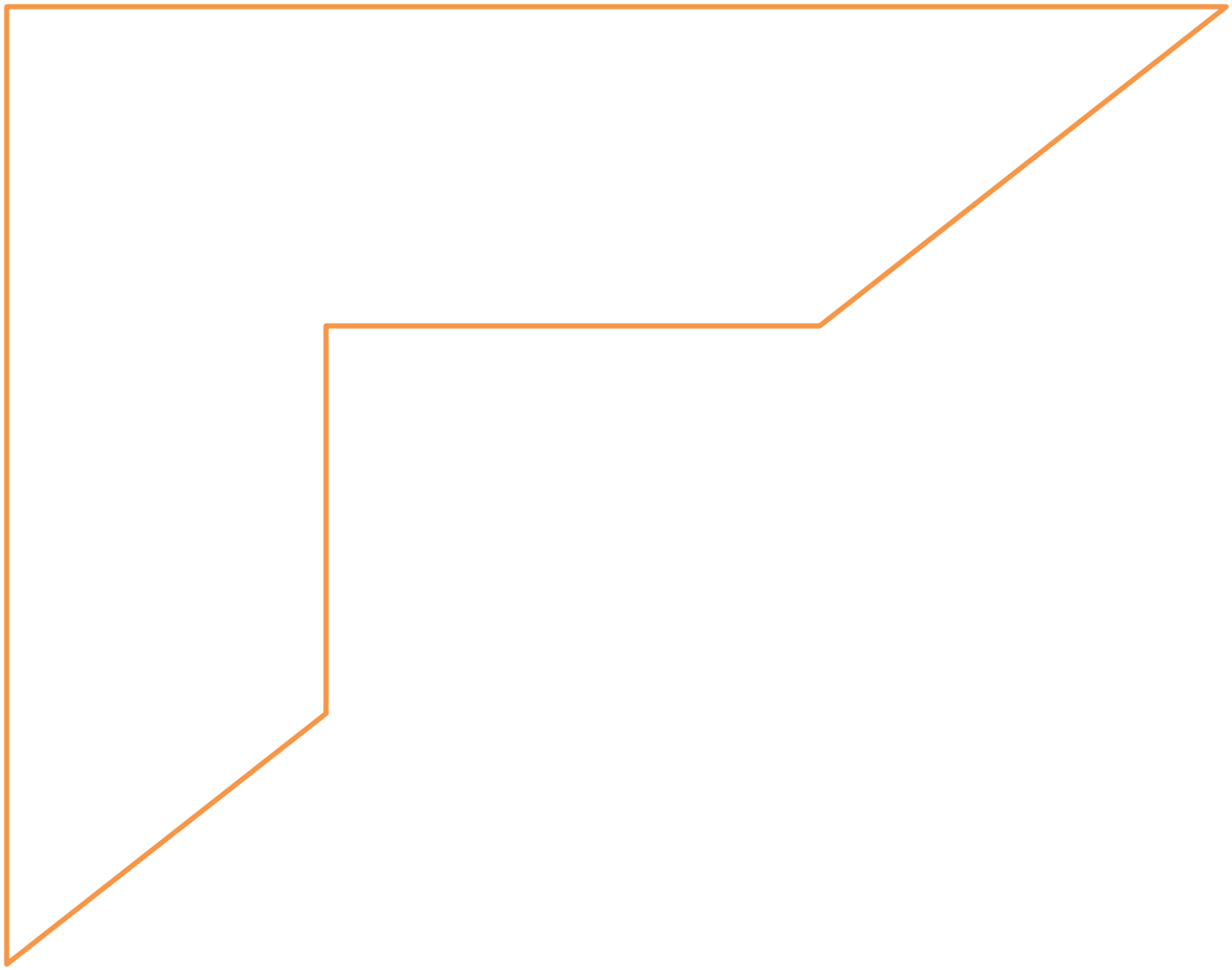

"القصة بكل احداثها وتفاصيلها وشخصياتها خيال محض من كاتبها .واى تشابه فى حدث ما او موقف او اسم انما هو صدفة قد تحدث فبعض اغرب مايحدث فى دنيانا صدفة تملكنا ولانملك لها دفعا .."

زكريا الشافعى

الثور والطحين

صدفة .... يقولون فى المثل "صدفة خير من الف ميعاد" .. وكانت الصدفة وحدها هى التى جمعتنى به بعد كل هذه السنين . . بهذه اللحية الكثيفة والنظارة العريضة التى غطت وجهه والثياب التى لاتشير الى احد ينتمى لى باى صلة قرابة اوصداقة او حتى زمالة !

حتى ان كنت تعرفة من قبل فاقسم لك انك لن تتصور انه هو . نعم .... لكنه كان هو ...بشحمه ولحمه وعينيه الحادتين وحاجبيه الكثيفين

ماجد الصواف ....

كانت الدهشة هى اول شعور انتابنى بعد ان تيقنت انه هو ... ثم انتابتنى نوبة ضحك كالسعال ... وهو ايضا وكـنما مسته عدوى الضحك التى أصابتنى قد انخرط فى ضحك وقور . وهو يربت على ذراعى من حين لاخر رحت احاول جاهدا ان أتوقف ، خاصة وقد عرفت ان بصحبتة آخرين كانوا ثلاثة او اربعة يبدو انهم كانوا يسيرون معة او خلفة لاادرى ويبدو انهم ذوى شأن تأخروا قليلا عنه حين أدركوا انه مع احد اصدقاءة القدامى هذا ماامكننى على الاقل ان اتبنية فى هذه اللحظات الخاطفة فتركوا له مساحة . ويبدو انه كان متعجلا فاخرج ورقة وقلم وكتب رقم وهمس لى هذا تليفونه الخاص "انا عايز اشوفك واتكلم معاك ياخى ! " ثم اعتذر فى ادب لان عليه اللحاق بموعد هام وهو يؤكد على ضرورة ان اتصل به !

اشياء بسيطة وتفاصيل صغيرة هى التى تعلق بالذهن فى مثل هذه اللحظات السريعة الخاطفة نعم .. الخاتم الفاخر فى اليد التى كان يكتب بها والسبحة اللامعة وهذا العطر المميز الذى ينفذ الى اعماق حواسك كلها .والابتسامة العريضة التى تكشف عن اسنان رائعة البياض

سوى العباءة التي تحيط بكتفيه على بذلته الفاخرة فبرق الخاتم الفضى الضخم في اصبعة ،استمر فى طريقة واستدرت بعد ان تفحصت الرقم المميز الذى اعطاه لى واستدرت لاراه يمرق فى سيارة فاخرة .

ولاانكر اننى واصلت نوبة الضحك وانا اسير فى طريقى غير عابىء بنظرات التعجب من القليل من الناس الذين مروا بى فى هذا الحى الراقى الهادىء من المدينة .

مرت ايام بل قل اسابيع ..... والواقع ان مشاغلى وعملى لم يتح لى فرصة الاتصال به... لكن صدفة جمعت بيننا فى نفس المكان ويبدو انه ثمة صلة ما بينة وبين هذا المكان . لكنه هذه المره اصر فى ود على ان نجلس سويا فى اقرب كافيتريا ..وحدث ..

يمكنك ان تقول ان ماجد الصواف صديق فقد جمعت بيننا سنوات العمر الاولى فى السكن فى ذات الحى والشارع كما جمعت بيننا مقاعد الدراسة حتى السنوات الاخيرة من الثانوية العامة .ماجد الصواف ارتبط الاسم فى اذهاننا بشخص كان يعب من الدنيا ويحيا حياة بوهيمية عجيبة كان طائرا شريدا يغرد دوما النشاز .. غريب الافكار كان يفاجئنا دوما بوجهة نظر او رأى لايمكن ان

يخطر ببال احد ..كان مجادلا ومحاورا متمكنا يمكنه ان يقنعك بالشىء وعكسه ! كنت اسميه friend on the other side(صديقى على الجانب الاخر) لايعترف بكبير ولاصغير ،ولاعالم ولاعابد ،لكنه كان يملك هذه القدرة الفريدة ،هذه المقدرة الفذة على صياغة الكلمات ،على بناء العبارات التى تبهر وتعقد لسان من يحاوره .كان لديه هذه المقدره على ان ينفذ الى اعماقك ويتسلل الى دواخلك كالساحر ليعرف مايدور فى بالك . كان ماجد الصواف هو هذا التناقض . تناقض يتيح له ان يلتقى باصحاب اللحى نهارا وبالساهرين فى جلسات الحشيش مساءا !! كانت له هذه الكاريزما التى تجمعه بكل زملاء الدراسة فى الجامعة من التيارات المتنافسة فى الاستحواذ على انشطة الجامعة وخاصة فى انتخابات الاتحادات الطلابية والتى كان يقتنصها ويستحوذ عليها طوال سنوات دراسته التى اظنها تجاوزت السنوات الاربع . ويبدو ان وراءها منفعة ما فقد كان يبذل فيها جهدا كبيرا . وفى الواقع لم اكن اهتم بهذا اصلا .كنت طالبا جامعيا فقط بمعنى الكلمة .لم انخرط ابدا فى تلك المهاترات... هكذا كنت اسميها .وكان لصاحبى هذا وجه اخر يعرفه القليل من المقربين اليه . كان مغامرا الى حد العربده .كان يعرف كل سبل اللذة المحرمة التى تتيحها الاسكندرية اذا اسدل الليل استاره ،يعرف هذا العالم السفلى السافل بكل تفاصيله . قد يحضر احدى المحاضرات وهو قادم من سهرة استمرت حتى الصباح فلايبدو عليه شىء .

بعد ان تحدثنا عن الأيام الخوالى وزملاء الدراسة والعمل ووو... كان هذا السؤال يفرض نفسه مهما طال الحوار او اختلف او طاف بالذكريات كنت عند كل جملة انطق بها اكاد أقوله .. ؟ كيف ؟ ومتى ؟

ضحك وقال - انت السبب

- لا . قلتها بتعجب حقيقى لكنة على عادتة يستطيع ان يقرا وجه من يحادثه

قال لى اكيد عايز تعرف ازاى وامتى وليه

- اكيد طبعا ... حاكدب عليك يعنى ! هذا سؤال اظن انك تعرف انى اكيد سوف اساله

- ابتسم وهو يلتقط سبحتة من على الطاولة حين جاء الجرسون ليضع امامه كوب العصير الفاخر ويهمس بادب جم اى - خدمة تانية يامولانا !

- رحت ارقب كل حركة من وضع السبحة في جيبة الى عقد اصابع كلتا يدية سويا على الطاولة الى عبينية اللتان لم تستقرا في مكان . كان يمكننى ببساطة ان اعرف ان ثمة شيء يقلقة فان لغة الجسد لاتخطى ابدا وهو امر تعلمتة من تعاملى مع الناس بحكم وظيفتى وبما قراته من كتب علم النفس التى اهوى قراءتها .

ضحكت ... فنظر الي بابتسامه ودودة وسألنى:

- بتضحك ليه .!؟
تحادثنا لادرى لكم ، لكنه لاشك كان وقتا طويلا فقد قلنا اشياء كثيره وتذكرنا اشياءا اكثر . حتى نظر فى ساعتة فعلمت ان الوقت قد حان ... فقمنا لننصرف سلم على فى عجل واختفى فى السيارة ..
مر اسبوع على هذا اللقاء حتى فاجئتنى زوجتى بخبر القبض عليه !!
خير ضجت به وسائل الاعلام وخاصة تلك التى صارت على اجهزة المحمول فالرجل كان حقا مشهورا !
وجائنى اتصال " الشيخ عايز يشوفك ..."
عايزيشوفنى فين ؟ هو مش فى ال...
"فعلا .". فى رد مقتضب . -
"طب ازاى" .
"يااستاذ احنا موضبين كل حاجة هو عايز يتكلم معاك" .
اثارتنى كلمى "احنا" اقلقتنى حقا من هم "احنا" . مامعنى ان يصر على لقاءى فى هذه الظروف . موقف لم اتعرض له يوما فى حياتى لم يحدث ان زرت احد فى السجن .فمابالك بشخصية معروفة مثله . الف سؤال دار فى ذهنى ولااخفى مخافتى ان اتورط فى شىء لااعرفه شىء يتصلقد يكون له علاقة بهذا الصراع بين الحكومة وهذه الجماعات التى سمعت عنها وهى فى معظمها على خلاف . ورحت اتصور عنوانا اخر فى الصحف "القبض على احد المشاركين فى ... ولك ان تتخيل اى شىء من كلمات مثل المؤامرة على كذا او التخطيط لكذا او فعل كذا . والواقع ان طبيعتى الحذرة بل قل قناعاتى هى من جعلتنى اتخد قرارا لارجعة فيه . لن اذهب . لن اعرض نفسى للقيل والقال .لن اضع نفسى موضع الشبهات !
كنت انتظر المكالمة التالية لاخبرهم بهذا .
لكن ماحدث كان غريبا حقا . فى مكالمة سريعة فى كلمات قاطعة وصوت رخيم اخبرنى ان ارتدى بدلة وستمر على سيارة فى تمام الثامنة صباحا عند تقاطع شارع مرتضى مع شارع ٢٥ !
لم يمهلنى لحظة لكى ابدى اعتراضى او انطق بكلمة مما زاد غضبى وحنقى على كل شىء ورحت فى سرى اصب اللعنات على صاحبى هذا ومعرفتة السوداء واقسمت فى سرى باغلظ الايمان انى لن اذهب وليذهب صاحبى هذا الى الجحيم بغموضه ومشاكله والضجة التى يثيرها اعتقاله ! ماهذا الابتزاز !!
فى هذا المساء جائنى اتصال على هاتفى من رقم غريب ترددت ان ارد حتى انقطع الرنين ثم اتصل مجددا فى اصرار وحين اجبت كانت المفاجاة لقد كان صاحبى على الجانب الاخر !

فى حوار طويل اجاب فى بساطة مدهشة عن كثير من تساؤلاتى التى تبدا بكيف ولماذا . وحين صرحت له بمخاوف تورطى فى شىء لااعرفه اوضح لى ان الامر يتعلق باسرته فانه ببساطة سوف يسوى بعض الامور المالية لامه واختة التى لايمكنها الحركة ولايريد هو ان يعرضها للحرج فهو يعرف ان وسائل الاعلام لها اعين فى كل مكان .
الغريب ان كل الامور الخاصة بالزيارة قد تم تسويتها . شخص ما استطاع ان يقدم طلبا باسمى وهو بالطبع لابد وان يتضمن بياناتى وصورة من بطاقتى الشخصية !
عندها فقط قررت مجبرا ان اقدم الفطنة على الحذر والكياسة على الخوف
حملتنى السيارة الفاخرة الى مقر اعتقال صاحبى هذا فى منطقة منعزلة الى حد ما غرب المدينة
كان يجلس بجانبى رجل وقور بلحية خفيفة مهذبة و خط شيب غزير يكسو جانبى شعره . تبادلنا بضع كلمات تعارف ، عرفت انه المحامى الموكل عنه ،وفى الواقع لم يهتم الرجل كثيرا حين اخبرته اننى احد اصدقاءة القدامى وكانه كان يعلم وراح يقلب فى بضع اوراق اخرجها من شنطة مكتظة كان يحملها .
كان لقاءا فريدا فى حجرة مأمور السجن الذى استقبلنا بود وترحاب واخلى لنا مكتبة الفسيح لنلتقى بصاحبنا الذى اتانا باسما متألقا انيقا كانما خرج من غرفة نومة فى بيته وحين عانقنى تنسمت هذا العطر الذى شممته اول مره التقيتة فيها ...
وخلال ساعة كاملة خص فيها محامية يربع ساعة فقط بينما طال الحوار بيننا . ادهشتنى هذه الضحكة التى اطلقها وهو يحكى عن موقف حدث له فى زنزانته !!!
دار بيننا حوار هامس فى معظمه ادركت ان يحرص على الا يسمع محاميه منه شيئا . حدثنى عن امه واخته وكيف اصل اليهما وعن اشياء اخرى بدت لى غير ذات اهمية فى موقفه هذا !
حتى قاطعنا المأمور بدخوله البهى وابتسامته ليخبرنا بلباقة ان وقت الزيارة قد انتهى .
وطوال هذا الطريق الطويل الذى راحت السيارة الفاخرة تقطعة بثبات كان الحوار الذى دار بينى وبينه يدور فى راسى ويملك على كل حواسى الا مرة اومرتين بادرنى فيها محامية بسؤال كعادة اهل المهنة الفضوليين .
ياالله ! قلتها فى نفسى . ان للرجل نفوذا او قل يحوطه اناس اصحاب نفوذ وسلطة !!
وعادت كلمات همس بها الى ترن فى اذنى كالوسواس .
قال لى اطمئن " لاعلاقة للامر بالسياسة !!! " . فى الحقيقة لم اصدق هذا ..
طلب منى ان اوصل شنطة لأمه واختة فى بلدة فى محافظة البحيره حرص ان لايسمع المحامى الاسم .
بنظره متشككة منى كان عليه ان يعرفنى ماذا فى الشنطة قال اوراق مهمة لى ومستندات يجب ان تكون مع امه واختة .

عنوان غريب لأحضر منه الشنطة وصلت اليه بصعوبة وبحذر مخافة ان يكون ثمة احد يتبعنى .
شقة فى عمارة قديمة اكد لى ان لااحد يعرفها من مريدية ولاالعاملين معه فقط هذ الرجل الصعيدى الذى باع له الشقة والذى احتفظ بنسخة مفتاح لدية ، شقة يلجا اليها اذا احب ان يختلى بنفسة بعيدا عن ضجيج الشهرة وتلصص الصحافة .
حصلت على المفتاح بعد حوار صعب مع الرجل ذكرت له بضع امارات قالها لى صاحبى لولاها ماكان الرجل ليعطينى المفتاح ولولا انى اكدت له اننى سآخذ له شنطة يحتاجها وصورة تجمعنا ايام الجامعة حرصت على ان اخذها معى . شنطة سفر مليئة يبدو انها لم تستخدم منذ فترة حيث علاها غبار كثيف ادركت من شكلها انها تحتوى بعض الملابس الشخصية له .
شعور قاهر الح على ، تملكنى منذ ان وصلت شقتى فى هذا الحى الهادىء الصامت الذى اكاد لااعرف جارى الذى يسكن فى الشقة المجاوره .شىء ما همس لى الا ابيت فى شقتى فقد ذهبت مباشرة الى مسكن العائلة فى كرموز حيث نشأت ، شارع يموج بناسة واهله حركة ونشاطا . لاتكاد تنقطع فيه الحركة . احسست انى ساكون اكثر امانا !! .
لم استطع ان اقاوم رغبتى فى معرفة مافى الشنطة جلست احادث ابى وامى طويلا تناولنا عشاءا خفيفا سالنى ابى عن زوجتى واولادى اخبرته انهم مسافرون عند امها فى طنطا سيمكثون اسبوعا .
دلفت الى غرفتى القديمة ورحت اتقلب فى سريرى رغم انى كنت مجهدا الا اننى لم يغمض لى جفن ! تجاوزت الساعة منتصف الليل
اخيرا اضأت نور الغرفة وضعت الشنطة على المنضدة وفتحتها !
فزعت من رنين هاتفى المحمول فى هذا اللحظة .....
كان جارى الاستاذ عبد الصمد وزميل العمل والوحيد الذى اعرفه فى هذا البرج يقول لى
- انتوا فين ! انتم نسيتوا باب الشقة مفتوح !

****

تسللت من بيت ابى ، قفزت فى تاكسى الى شقتى فى المندرة فى الجانب الاخر من المدينة . فى شوارع المدينة التى يخف فيها زحام المرور فى هذ الساعة المتاخرة اسرع السائق بى لم تمر اكثر من نصف ساعة حتى كان امام برج الاخلاص فى شارع اللواء . اخبرته ان ينتظرنى فلن ابقى طويلا وهو ماحدث فعلا ...

كان حارس العمارة جالسا عند سلم البيت قلقا يدخن سيجارة ، انتفض حين رآنى . كان رجلا صادقا يؤدى عمله باخلاص . اغلق باب العمارة وصعد معى للاعلى اخبرنى انه يشك ان احدا تسلل الى شقتى .. وراح يصف لى رجلا فى الواقع لااعرفه . حين صعدت الى الشقة فتشت بسرعة عن اى شىء مفقود فلم اجد ولما كنت اعرف طبيعة زوجتى فى وضع و تنظيم الاشياء بدقة عرفت ان شخص ما قد عبث بالشنط فوق الدولاب وعلى عجل ويبدو انه يبحث عن شىء يعرف شكلة لذلك لم يضع وقته فى التفاصيل .

اغلقت باب الشقة جيدا وشكرت الحارس وعدت الى التاكسى الذى كان ينتظرنى ....

اذا ثمة من يبحث عن هذه الشنطة . هو اذا الموضوع . فاتنى هذا الجمال والهدوء لشوارع الاسكندرية فى هدأة الليل واحدى اغنيات ام كلثوم تصدح فى راديو التاكسى ..

قفز الى ذهنى المشتعل فكرة المؤامرة . ثم هذه الفكرة المجنونة كانفجار لغم ماذا لو كان اولادى بالداخل حين تسلل هذا الرجل !! . عدت اصب اللعنات على صاحبى ومعرفته وشنطته وكل مايتعلق به حتى برنامجه هذا الذى يشاهده الملايين وتفاخر زوجتى انه صديق زوجها !!!

ماذا فى هذه الشنطة اللعينة التى لم اكد افتحها حتى جاءنى هذا الاتصال فلم اعرف مافيها !

ماهذه الاوراق التى يحرص صاحبى هذا الا تقع فى ايدى خصومه .من هم خصومه ؟

مالقضية التى حبس بسببها . لم استفيق من افكارى الا حين نبهنى السائق اننا وصلنا .

تسللت الى البيت وقد حرصت الا يسمعنى احد .

كان ابى منضبط فى عاداته كالساعة . نعم يمكنك ان تضبط ساعتك على عاداته وفى الحقيقة تعلمنا هذا منه فاولاد الحاج نور يعرفون قيمة الوقت ويقدرون معنى الالتزام كان فى عمله يستيقظ كل يوم قبيل الفجر ليتوضأ ليصلى الفجر فى المسجد فى نهاية الشارع يعطر طريقة بهمهمات التسبيح والتحميد .

تخففت من بعض ملابسى وجلست على حافة السرير الصغير وعيناى على الشنطة الرابضة على المنضدة امامى والتى كان يبين منها شيء ما حين فتحتها ولم ار مابداخلها لقد افزعنى اتصال جارى حينها !

لم اكد ارفع غطاء الشنطة حتى سمعت صوت سعال ابى فى الصالة التى انار مصباحها ، فرحت فى حركة لاارادية اخفى الشنطة خلف السرير ! وحسنا فعلت فقد جاء صوت ابى متسائلا ومتعجبا " انت لسه صاحى يامصطفى يابنى " ! ؟

انها مشاعر اب ادرك ان ثمة امر يؤرق ابنة فجلس الى جوارى وسالنى وهو يضع يده على كتفى بحنية . " فيه ايه يادرش ؟ ايه ايه اللى شاغلك ؟ " وكانه يعرف اجابتى .. لذلك بادرنى بقوله
- " اقولك .. قوم يالا اتوضى وتعالى نصلى الفجر سوا "
-تعالى "اتعكز" عليك لحد الجامع ؟
حين اذن الفجر وانساب الصوت رخيما عذبا كنا فى طريقنا الى المسجد فى سكون الليل الجليل . كانت بضع دكاكين مازالت تعمل وكانت كل الوساوس تنهش راسى فرحت اتلفت يمينا ويسارا ماذا لو ان الذى دخل الى شقتى فى المندرة يعرف اين انا الان فيدخل الى شقة ابى الان " امى ياالهى !! " نعم شارعنا امان ولكن ماادرانى !!
لقد اغلقت الباب خلفى باحكام .. استغفر الله لم اشعر انى صليت .. لاادرى ! فقط ابتهلت الى الله و هتفت من اعماقى ياارب .
-------.
جلس ابى فى الصالة يقرا وقد وضع نظارتة السميكة على عينية وماهى الا دقائق حتى استيقظت امى وجائت الى حجرتى مباشرة فقبلتنى فى عينيا كما اعتادت منذ ان كنت طفلا . وبابتسامة لم تفلح سنوات العمر الطوال ان ان تخفى روعتها وجمالها قالت
-" تفطر بقة مع ابوك ...عارف ياواد يامصطفى حدوقك حاجة بتموت فيها " ...
قطع ابى قراءتة " يانهار ابيض ... اوعى تكونى ناوية تفطريه ملوخية !! "
-"اطلع انت منها بس ... انى وابنى حرين ".
قولت ايه يابو ...!؟
" لجين ياامى "
اشارت امى بيدها معترضه " ايوه ! " لاشين " ضحكت رغما عنى
-"ياولية هاتلينا الفول والبيض . وخللى الملوخية للغدا" .
قالها ابى وهو يشير بيده التى لم تفارق المسبحة " . -
ورحت اتحين الفرصة والوقت المناسب لفتح الشنطة بعد ان تناولت افطارا اوقل تناولت لقمة اولقمتين واتبعتة بكوب شاى ثقيل كما اعتدت .

****

لقد اوجدت لنفسى الف عذر لمعرفة مافى الشنطة . لعل اهما مخافة ان تحوى شيئا مخالفا – نعم شككت فى ذلك – فأحيانا سوء الظن من حسن الفطن . كيف اسافر الى هذه البلده فى اعماق محافظة البحيرة وانا لااعرف مااحمل – فقط تصور لو ان ... وطافت بذهنى كل الاحتمالات !

حينها فقط اغلقت الباب وفى ثوان كنت اضع الشنطة على المنضدة امامى مرة اخرى ورحت فى هدوء ارفع الملابس التى رصت بعناية واتفحصها بهدوء . لم يكن ثمة شىء غريب...! كانت فى الواقع بضع قمصان وبدلة ايطالية فاخره ودوسية بلاستيكى يحوى عدة اوراق قرات بعضها سريعا كانت عقودا مع شركات دعاية وماشابه ! رحت اتسائل هل كان عائدا بها من سفر اوكانت معده للسفر لم يكن عليها اى ملصقات قدوم او رحيل !!

احسست كانى خدعت مرتين ! كل هذا القلق والتوتر والسرية لكى اوصل شنطة تحتوى على بعض ملابسه ! حتى الاوراق التى يدعى اهميتها لم اجد فيها مايستدعى ! عقد ببضعة الاف فقط ! لا ... قلتها فى نفسى وقد تصاعدت الدماء الساخنة ثانية الى راسى المشتعل اصلا !

ورغم ذلك لم اكد اضع راسى على الوسادة المجاورة حتى رحت فى نوم عميق . نوم المجهد !

.

****

كانت الشمس قد تسللت الى غرفة النوم معلنة ظهيرة هذا اليوم ولم اكد افتح عيناى المجهدتين لانظر حولى فى تثاؤب حتى سمعت صوت امى تنادى ثم تطرق الباب برقة

يامصطفى قوم بقه بقينا الضهرية -

- افطرت لقيمات ثم تجرعت كوب شاى ثقيل وفى دقائق كنت فى المحطة كنت فى القطار وفى يدى تذكرة سفر الى طنطا !!!

كان على ان اجد سببا مقنعا لهذا الزيارة التى لم تكن فى الحسبان خاصة وأن زوجتى والاولاد كانوا على وشك العودة كما كان مخططا من قبل . لكن فى الحقيقة ايضا ان ايجاد سبب ليس امرا صعبا .

سعادة وفرحة باللقاء مع اهل زوجتى الذين جمعتنى بهم معرفة قديمة وجيرة وعمل . كانوا اهل فضل واصل طيب .

اما لماذا سافرت طنطا ولم اسافر للبحيرة فهذا امر لايمكننى ان اجيب عنه الا اذا تذكرت لحظة وقوفى فى المحطة وصورة ابنائى وزوجتى ماثلة امام عينى وصورة اخرى لرجل خلف القضبان تحيط به الف علامة استفهام وغموض يثيرالقلق .ورجل تسلل الى شقتى فى المندرة يبحث عن شى لااعرفه واخيرا شنطة احملها وانا لااعرف اهمية مافيها .

فعلت اشياءا عجيبة مخافة ان يكون احد مايتبعنى ! ركبت القطار ونزلت عدة مرات ورحت اراقب الناس وتلفتت حولى مرات ومرات .جلست على رصيف المحطة حتى كانت لحظة تحركه فوثبت فيه !!
كان وقت الرحلة كافيا للتفكير فى مايجب ان افعله .. وهو ماحدث بالفعل .
لقد ادركت انى ورطت نفسى فى امر كبير وخطير . شىء اكبر من صاحبى هذا بشهرته وبرامجه .شىء غامض لاافهم ابعاده ولاطبيعته . لقد استبد بى القلق خوفا على اسرتى ورحت اتابع اخبار قضيته على وسائل التواصل التى تفننت فى رصد كل كبيرة وصغيرة .
وصفحات تواصل تنادى باطلاق سراحة يجمعون التوقيعات وشىء من هذا القبيل يسمى هاشتاج يطالب بالافراج عنه واخر يطالب بمحاكمه المتهمين الحقيقيين !
كانت فرصة وجودى فى طنطا ان التقى بصديق طفولتى وهو ايضا اخ زوجتى وخال اولادى .صديق عمر واهل للثقة يعمل محاميا فى طنطا وفى الاسكندرية له باع طويل فى معرفة بواطن الامور وخفايا واسرار القضايا .
فى داره الفسيحة راح الاولاد والزوجات يمرحون وصوت ضحكاتهم يطغى على كل شىء .
فتسللنا الى ظل شجرة توت فى وسط الارض وافترشنا الارض ولم يكن هناك بد من ان القى عن كاهلى هذا السر الذى يقض مضجعى ويؤرق نومى .
وراح يسمع باهتمام حتى انه لم يقاطعنى ولو مرة واحدة !
ولما انتهيت من كلامى رفع بصره الى وقد كان مطرقا الى الارض وفى يده عود يابس يحركه يمينا ويسارا !
نظر الى وتلفت حوله وكانه يطمئن الى ان احدا لايسمعنا !
وقال بكل هدوء .
-قوم بينا نرجع البيت !!

****

فى اليوم التالى كنت واولادى فى طريقنا الى الاسكندرية فى سيارة خاصة !! ولكن ليس الى شقتنا فى المندرة بل الى شقة بيت ابى وامى فى كرموز ، رغم تشكك زوجتى فى الامر فقد سالتنى عشرات المرات . والف الف هاجس راح يموج فى صدرى وقلق لاطاقة لانسان على تحمله
. لمن الجأ وانا اشك الان فى كل شىء واى شىء . ورحت فى ثورة غضب اصب عليه كل لعنات الدنيا على صاحبى هذا ومعرفته واليوم الذى وافقت فيه على لقاءه . وقررت اذا اتصل بى ان اخبره ذلك . اخبره انه وشنطته ومعرفته فى الف داهية وعليه هو ان يرسل الى من

يتسلمها او يأت هو بنفسه ولن اخطو خطوه بعد الان وليذهب هو واشياؤه والغازه الى الجحيم !
ثم افرجوا عنه لادرى كيف ولالماذا !
ماكاد يمر اليوم الذى سمعت فيه بخبر الافراج عنه حتى كان على التليفون يطلب لقائى فى ذلك الكازينو الذى التقينا به فى المرة الاولى . احضرت الشنطة وحضر هو ومعة حراسة يثيرون انتباه اى احد باجسادهم الضخمة ونظراتهم القلقة .دار بيننا حديث قصير مقتضب . شربنا القهوة سريعا ثم قام ليسلم على ويحتضننى وهو يهمس بكلمة اسف فى اذنى لانه عرضنى لمثل هذا الموقف ! .لاحظت ان عيناه تجنبت النظر الى عينى . ثم كانما تذكر شيئا فالتفت الى لكنه تردد فى ان يبوح به . ومرق سريعا من بين مقاعد الكافيتيريا الخاوية فى هذه الساعة المبكرة من صبيحة يوم اثنين .
بقيت قليلا فى الكافيتريا فقد كنت فى حاجة الى فنجان قهوة اخر رحت اشربه فى هدوء وسكينة خارج المقهى الذى يقع مباشرة على الكورنيش ورحت استمتع بهذا الاطلالة الرائعة على الامتداد الرائع لمياة البحر وتلاقيها بالسماء الصافية ويضع سحابات صغيرة تزين هذا النقاء حتى مرت سيارتين اسعاف بسرينة زاعقة تتعجل الطريق وينادى سائقها فى مكبر الصوت بافساح الطريق ... كانت حادثة .

****

رن هاتفى المحمول فى نفس اللحطة التى كنت خارجا من كافيتريا والى وصوت ابى على الطرف الاخر يسالنى " انت فين " بقلق ! ويطلب منى ان احضر حالا ..
لم اكن قد احضرت سيارتى ... شىء ما فى داخلى حدثنى الا افعل .اشرت الى تاكسى فانطلق فى اتجاه اول استدارة "يو ترن" ليسير فى الطريق المقابل المتجة غربا الموازى للكورنيش مباشرة ...ولدهشتى حين مررنا بموقع الحادث كانت سيارة زرقاء فاخرة مهشمة وقد انقلبت على ظهرها كانت سيارته التى غادر بها لتوه الكافيتيريا دماء على الابواب وشظايا زجاج فى كل مكان .كدت اصيح بالسائق ليتوقف لكن الرجل فاجئنى بتقرير مفصل وسريع عن الحادث ... واشتعلت كل الهواجس فى راسى .
فى الطريق ادركنا سيارة الاسعاف التى كانت تزعق وهى تنهب الطريق الفسيح على كورنيس المدينة ثم وجدتنى اطلب من السائق ان يتبع سيارة الاسعاف هذه . عند اول درجات سلم المستشفى فى قسم الطوارىء التقيت احد حراسه كان قد خرج لتوه من تضميد جراحة فانتحيت به جانبا وكأن الرجل هو من وجدنى دار بيننا حديث سريع انتهى بلقاء طبيب الطوارىء الذى رحب بوجودى بصفتى اعرف الشيخ اخبره بذلك هذا الرجل !

ثم ابلغنى بخطورة حالتة وخوفه من تحمل مسئولية وجودة فى مستشفى عام وهو الشخصية المعروفة .. واسقط فى يدى حين جائت المرضة تهرع من غرفة قريبة لتعلن وفاة الرجل القادم من الحادثة غامت الدنيا فى عينيا ووجدتنى واقف بلاحراك لم استطع ان الحق بالطبيب الذى اندفع الى الغرفة تاركا بابها مواربا ... امتدت عيناى فى وجل وانا انظر الى الراقد فى السرير والطبيب يحاول اسعافه دون جدوى وفى لحظة لمحت عيناى هذا الوجه الصامت صمت القبور . لم يكن هو .. كان احد حراسه الشاب اليافع الذى كان معنا فى الكافيتريا منذ قليل ..!

تحرك احد افراد امن المستشفى ليخرجنى من المكان فى هذه اللحظة فوجدت نفسى دون تفكير انادى على الطبيب واطلب منه ان ارى صديقى .. فى قلق واضطراب اسرع الرجل بى الى سرير اخر فى نفس الغرفة يفصل بينها ستارة زرقاء . كان ثمة ممرضة تتابع الاجهزة التى ارتبطت بيده وصدرة وزجاجة محلول معلقة بجانبة . كانت ملابسة غارقة فى الدماء وجاكت بدلتة ملقى على منضدة صغيرة بجوارة وقد اتسخت بضعة اماكن فيه بشده وعلته الاتربة .

فى لحظة وكانما احس بى فتح عينية واشار الى بهما ان اقترب . ملت عليه لاسمع فهمس الى من خلف قناع التنفس الشفاف

- الجيب الصغير ... خد الفلاشا !

ثم اشار بعينية الى جاكت البدلة الملقاة بجوارة .. ونطق اسما لم يكمله مصطفى ال ... ثم راح فى غيبوبه !

كان ثمة جلبة فى الخارج . اناس ما يحاولون الدخول وافراد امن المستشفى يمنعونهم كان يمكننى بسهولة ان اعرف انهم ذوى سلطة فقد القوا بالرجل جانبا واندفع الاربعة الى داخل الطوارىء حينها فقط ودون تردد وبشكل الى التقطت جاكت بدلتة وتواريت فى السرير المجاور والجاكت على وجهى كأنى احد المصابين الذين قدموا من حادث !!!

دار هذا الحوار بينهم وبين طبيب الطوارىء الشاب بشأن نقله الى مستشفى خاص والاجراءات كانت هى اللحظة المناسبة لى لاتسلل خارجا ... لاجد فى الخارج حارسة الذى كنت احدثه منذ قليل يقتاده رجال الشرطة الى سيارة واقفه بالقرب من باب المستشفى !!

فى لمح البصر كنت فى سيارة ميكروباس متجها الى اى مكان يبعد عن المستشفى !

بعد قليل نزلت واشرت الى تاكسى لياخذنى الى بيت ابى !! فى الطريق الذى يستغرق ساعة على الاقل . تمكنت من استخراج الفلاشا من احد الجيوب الصغيرة فى جاكت البدلة ... " اذا هذا هو السر ...هذه الفلاشة ..."

، ترى هل كانت فى الشنطة ولم اكن اعلم بوجودها ام كانت معه من قبل . مااهمية مافيها هل هى حقا ماكان هؤلاء الناس يبحثون عنه . .ثم لاحظت هذا الثقب الصغير فى الجاكت واثر رصاصة بلاشك اسفل الجيب العلوى !!
انتفضت رعبا !
ورحت استرجع الكلمات التى قالها لى حارسه الذى اقتادتة الشرطة منذ قليل ... وشريط من الاحداث يتراءى امام عينيا منذ لحظة لقاءى بصديقى هذا صدفة . شريط ملىء بالاحداث ... والشخصيات والاماكن ...شريط احداث يحوى الف علامة استفهام ...
انتبهت على صوت السائق ينبهنى اننا وصلنا الميدان .. سرت الى بيت ابى ببطء وانا اتوقف من لحظة لاخرى لانظر حولى .
كنت ف حاجة الى مكان اختلى فيه بنفسى استجمع فيه شتات افكارى ارتب فيه خطواتى القادمة .. كنت احمل شيئين ادركت بشكل ما ان فيهما او فى احدهما حياتى . ثم تذكرت مكاملة ابى فاسرعت الخطى وقد استبد بى القلق !!
كانت الساعة قد جاوزت الثانية عشرة ظهرا عند وصولى الى بداية شارعنا . صدع ميكرفون المسجد باذان الظهر بصوت قوى يتفق وضجة النهار فى هذه الساعة دعوت الله ان يكون ابى وامى بخير حين صعدت اول سلمات البيت العتيق سمعت صوت باب يفتح ويغلق !
وعند اول درجات السلم فى الاعلى كان ابى بثوبة الابيض ينزل درجات السلم بتؤده ووقار قفزت السلمات واحتضنته واجهشت بالبكاء !
كان مشهدا يحمل كل علامات التعجب يسالنى ابى عما بى واساله عما به ..
- ايه يابنى مالك .. اناعايزك فى موضوع ... حاروح اصلى ولما نيجى نبقى نتكلم ...
- لم اكن اود ان القى زوجتى وابنائى على هذه الحالة . سالت ابى اخبرنى انهم مستيقظين بالفعل . لم يكن هناك بد من ان احمل الجاكت معى الى المسجد !
كان شيئا جميلا ان اتوضأ ليغشانى شعور بالسكينة يتسلل الى داخلى يملأ كيانى ويحتوينى وقفت فى هذا السكون الجليل فى الصلاة فغمرنى هذا الشعور بالطمانينة والراحة ورحت احمد الله واناجيه ...
- فى الطريق سالنى ابى .
ايه موضوع صاحبك الشيخ ده ؟ مراتك قالتلى ... انت يابنى تعرفه فعلا ؟ ! فيه ايه فهمنى ؟
- فى لمحة ادركت ان هذا هو الموضوع الذى يريدينى فيه ابى . وهو سبب اتصاله وقلقه يقتلنى الفضول لاعرف مافى الفلاشا ، لم اكد انتهى من تناول الغذاء فى بيت العائلة حتى كنت فى طريقى لبيت احد اصدقائى المقربين بعد ان اخبرت اولادى اننا عائدون الى بيتنا فى المندرة بعد ان اعود !

ورايت هذا بام عينى والدهشة تقبض انفاسى . محامى صديق هذا الشيخ ذلك المحامى الذى رافقنى فى رحلة السيارة الى السجن حيث زرنا هذا الصديق . رايته وهو ينزل الدرج من عند صديقى هذا !! لادرى كيف تمكنت بحدسى ان اتورا فى اقرب محل بقالة ....
اصبح الامر محيرا ومخيفا وغامضا !!
يبدو اننى تورطت فى شىء لااعرف مدى خطورته ... هنا فقط قررت الى اتوجة الى الجهات الرسمية ولكن اى جهة رسمية اتوجة اليها . هل يكفى ان اقدم بلاغا فى قسم الشرطة ولكن ماذا ساقول ؟!! ... الامن الوطنى .. المخابرات ..!! يالها من ورطة !
مر يوم . اربع وعشرين ساعة وانا اراجع نفسى مرة ومرات ورحت ادور فى دائرة مفرغة من قرار الذهاب او عدمه .. حتى اتخذت قرارى فى ظهيره ذلك اليوم ... كنت اعرف ان هذا المبنى المحاط باسوار عالية فى هذا للحى الصامت صمت القبور .. دخلت وطلبت مقابلة احد الضباط المسئولين الكبار ... مرت ساعة قبل ان يخبرنى احدهم ان شخصا هاما سيلتقينى ! ثم مرت ساعة اخرى قبل ان يستقبلنى احدهم فى مكتبه ليسالنى عن مشكلتى ثم ليخبرنى اننى سالتقى بفلان بك لاحكى له التفاصيل .. ثلاث ساعات مرت قبل ان اجلس ليستقبلنى رجل كانما خرج من صالة تدريبات رياضية قوى البنية حاد النظرات قوى الملامح ثم ليزيد حيرتى وقد قمت واقفا حين دخل وسلم بادرنى بقوله " اتفضل اقعد يااستاذ مصطفى " .
انصت الى الرجل ولم ينبث بكلمة اثناء حكايتى الطويلة التى حرصت ان اضمنها كل مااعرف او كل ماظننت ان له صلة بالموضوع ... لم يقاطعنى سوى مره فقط حين سالنى :
- "قهوتك ع الريحة استاذ مصطفى . صح " ؟ !
واخرج من درج صغير اسفل مكتبه فنجانين قهوه وسبرتاية وراح فى حرص وتركيز يضع القهوة والماء فى الكنكة النحاسية اللامعة وراح يشير بحركة راسه كى استمر فهو ينصت الى !
صب الفنجانين ببراعة . قمت واقفا لاخد فنجانى فاشار الى بان اجلس ثم دار حول مكتبة فى الحجرة الفسيحة ليجلس امامى مباشرة ويناولنى قهوتى !
وضع ساقا على ساقى واسترخى فى كرسية وارتشف قهوته بصوت مسموع . ثم ابتسم لى وفاجانى لاول مرة بالسؤال :.
-ايه رايك :؟
-نعم ... فى ايه ؟!!
-فى القهوه ؟ .
-اه اه ايوه تسلم ايديك يافندم !
ثم رحت انتظر ردا على حكايتى الطويلة ...فاذا بى اسمع اغرب رد تخيلت ان اسمعه ...

انت سهلت علينا لفه كبيرة ... عموما " انت حتاخد اجازة من الشغل وتاخد ولادك وتطلع على شرم الشيخ يابطل ! "
" ..... ؟!"
كان الالف سؤال الذى يتصارع فى ذهنى يتكاثر كبكتيريا تتكاثر وتنمو بجنون ...
سلمته الفلاشا ..فوضعها بلااهتمام امامه على مكتبه .. ثم مال على وحدجنى بنظرة جادة .
-" تقنع الحاج والحاجة يكونوا معاك .... اسبوع فى شرم وعلى حسابنا .. هه حد لاقى ؟ عربية حتجيلك بكره بعد المغرب ...
"يافندم .... بس !"
لم يمهلنى الرجل ثانية واحدة فقط قال: " دبر امورك ... عندنا شغل لازم يتعمل .. ولمصلحتك "
..ثم نظر فى ساعة يده و اشار بانتهاء الحوار ... فقمت وانا لاادرى مافعلته بنفسى !

.**********

كان يمكننى ببساطة ان اعرف ان ثمة حراسة متخفية ترافقنى فى كل مكان فى الايام التى " لاانكر ان ابى وامى وزوجتى والاولاد استمتعوا بها حتى اخر ساعة فيها ...
كنت ابحث فى الجرائد اليومية التى كانت تصل متأخرة على اى خبر يتعلق بصديقى هذا فلم اجد .. ثم اقنعت نفسى بانه مازال على الاقل على قيد الحياة ذلك لان موته وهو شخصية معروفة لن يخفى على احد ...
قفز الى ذهنى هذا الاسم الذى نطق به صديقى هذا قبل ان يغشى علية فى المسنشفى لقد كان " مصطفى ال.... " ... لااذكر انى قلت هذا الاسم لضابط الامن الوطنى .. لعل فى الاسم اهمية ما ... فكل تفصيلة وان كانت صغيرة قد تمثل اهمية بالغة بالنسبة لهم وخاصة الاسماء !! كيف فاتنى هذا ..!
.. ترى هل اقول ذلك لهذا الذى اعرف انه يراقبنى واعرف يقينا انه يحرسنى .. رحت اتطلع الية بطرف عينى وارقب حركاته كانت عينه تتابع مدخل الشاطىء للقرية السياحية حينا ثم شاطىء البحر امامنا حينا اخر ... كنت اتسائل اين يضع الرجل سلاحه وهو فى هذا التيشرت والشورت وهو يضع سماعة على اذنه !!
قمت من مكانى لأتمشى قليلا اصطحبت ابنتى الصغيرة "لجين" وتعمدت فى عودتى ان امر بجواره .. تلاقت العيون للحظة كانت كافية لتُلقى التحية وتلقى ردها .كانت تحية صامتة لكنها كافية لتبعث فى قلبى طمأنينة ولو الى حين . فلم يغب عن بالى انهم تكفلوا بان اكون فى

امان فى هذا المكان رحلة ترفيه فى الظاهر لكنها ابعاد عن خطر هم يعرفونه اكيد ترى من ووفروا لى حراسة فلاريب ان الخصم عنيد ويدة طويلة ...
بادرنى صبى الخدمة فى الفندق فى ظهر اليوم السادس من رحلتنا الاجبارية هذه بسؤاله :
" مش عايز الجرايد يااستاذ .. !؟. الاخبار جامدة ....!! " قالها وهو يشير بقبضة يده بصوت اقرب الى الهمس ..
" دول فجروا محطة ال ..... " واقتطع كلامة حين راى بعض السائحين قادمين . اعتدل وهو يقول " حاضر يااستاذ حاجيب لحضرتك الجرايد " .
"كانت تفجيرات ارهابية قد ضربت فى اماكن عدة فى وقت واحد فى سيناء وكان واضحا دون عناء تفكير انها مدبرة ومخطط لها قالت الجرايد هذا ايضا لعل ذلك هو السبب فى انى تلقيت اشعارا بان غدا سيكون علينا ان نرحل ...تلقيت هذا الاتصال الذى يوضح لى ان الاجازة قد انتهت وانه يجب على ان اعد العدة للرحيل .... تسعة ايام بالتمام والكمال فى احدى بقاع سيناء طبيعة خلابة ساحرة وجمال لامثيل له .. بحر فيروزى بمياه رقراقة ورمال كحبات اللؤلؤ نقية نظيفة على شاطىء بكر كأن لم يمسه بشر .
فى المطار طلبوا منى ان ألتقى احد المسؤولين لتصحيح شىء يتعلق بتذاكر الطيران .. وفى مكتب خال من اى احد انتظرت دقائق حتى سمعت صوت اقدام تقترب من باب جانبى لم يكد ير القادم حتى انتفضت واقفا من المفاجاة .. كان ضابط الامن الوطنى الذى لقيتة فى الاسكندرية .
رحت احاول ان اتذكر الاسم فلم تسعفنى الذاكرة .. اعفيت نفسه من اللوم فقد كنت اعرف فى قراره نفسى ان الاسم الذى اعطاه لى لم ولن يكون اسمه الحقيقى فهذه هى طبيعة عمل من يعملون فى هذه المؤسسات .. لااسماء .. لاعناوين !!
-"يافندم سعادتك انا عايز افهم بس .. اعرف عشان ....."
اشار الي .." المهم ارجو ان تكون قد استمتعت بالرحلة ... الرحلة دى على حساب مصر"
" نظرت فى تذاكر الطيران .. انها شركة حورس.... وليست مصر للطيران" .
ضحك الرجل الذى التقط ماجال بذهنى - "لا لا مش مصر للطيران ... مصر الوطن البلد"
"لما توصل بالسلامة يااستاذ مصطفى حنعرفك كل حاجة ... عايزك لما توصل بالسلامة متفكرش فى اى حاجة ولاتتكلم عن اى حاجة عيش حياتك طبيعى جدا .. زى ماكنت" .

_**********

مر اسبوع والثانى ومر اسبوع ثالث ومر شهر كنت اتوقع فى كل يوم ان يتصل الرجل بى او ان اراه فى اى مكان ... كنت استرق السمع لاى تليفون لى او لغيرى ... كنت اتفحص وجوه الناس فى كل مكان اذهب اليه .. كنت احتاح الى صبر فوق صبرى لاحتمل فضولى لان اعرف بل حقى ان اعرف . لقد مرت بى احداث ليس من السهل نسيانها كنت اقوم فى الليل لاتاكد من ان باب الشقة الحديدى مقفول جيدا وان الثلاثه ترابيس محكمة الغلق .
كنت اطمئن على اولادى وزوجتى كل يوم وانا فى العمل وعلى امى وابى ..زز اصبحت اكثر حرصا وحذرا وتشككا . لاحظ زملائى ذلك . رفضت الموافقه على اتمام صفقة لاننى تشككت فى العميل طلبت مهلة لعمل بحث كاف عنه اعترض الزملاء بحجة تعطيل العمل .
يقولون ان الرجل لاغبار عليه واوضاعه المالية مستقرة .. اجتمع مجلس الادارة واتخذوا القرار لم اوافق لكنهم وافقوا فتم القرض للرجل .. لم يكد يمر اسبوعين حتى علمنا ان الرجل قد هرب الى الخارج ... الى اوروبا وترك املاكه من عقارات وشركته التى علمنا فيما بعد انه كان قد باع كل هذا !!
حين باشرت جهات التحقيق عملها كنت فيمن كانوا فى قائمة الاتهام لقد كنا كأننا فى شبة اعتقال او تحديد اقامة . افرجت النيابة عنا جميعا بضمان وظائفنا مع تعهد ان نكون جميعا تحت الطلب والاستدعاء . اتهم طاقم العمل كله بالاهمال بالتواطؤ فى اهدار اموال البنك فتلقوا احكاما بعضها بالسجن وبعضها بالاحالة الى التقاعد ... لم ينج من هذه المذبحة الا انا لثبوت رفضى فى الاوراق وشهادة بعض من اعضاء مجلس الادارة .
حين تسلمت ادارة البنك الجديدة العمل كنت واحدا منها وفى ذات ماكان علية الامر من قبل كما قضى حكم النيابة . راحت الادارة الجديدة وفى عمل دؤووب تعيد مراجعة حسابات العملاء والبيانات والشركات التى نتعامل معها وتربطنا بها علاقات العمل .. كان العمل يمتد احيانا الى مابعد منتصف الليل ... لنعود فى اليوم التالى نكمل ماانجزناه بالامس ... كان شيئا مفزعا حقا ان نكتشف اشياءا غريبة وتحويلات غامضة واسماء لادليل عليها .. ورحنا نضيق الخناق على بضع تحويلات بمبالغ فلكية من والى بنوك فى مناطق لايعلم احد الا الله اين توجد .. بنك راشمير فى مدينة جلال اباد ...مبلغ ب ثلاثة واربعين مليون دولار ..
مبلغ محول من بنك سانتا لوشيا فى كوستاريكا اربعة وسبعون مليون دولار ...
مبلغ بالعملة الاوربية الموحدة اليورو من بنك اتلانتس فى بلدة جاكوبستاد فى فنلندا .. وغيرها ..
كان اغرب مافى الامر أن الذين قاموا بسحب هذه المبالغ على دفعات اناس عاديين لانعرف احدا منهم من الاسماء التجارية ولا اصحاب الاعمال .. مما جعلنى أشك فى وجود

هؤلاء الاشخاص اصلا . فقط اسم واحد ظهر امامنا نعرفه او قل اعرفه انا كما لم يعرفه احد كان ماجد الصواف .. نعم هو .
كثورانات البراكين الفجائية .... كانفجار قنبلة ..... كتفجير لغم . كان هو .
لم يكن ثمة مايدين البنك فى هذه العمليات المالية فهو امر شائع ومقبول بل هو فى صالح ومصلحة البنك . تحويلات مالية من والى .... امر طبيعى حتى وان كان بمبالغ كبيرة بالملايين . لكننا كنا نعرف بخبرتنا ان التحويلات هى ارصدة ومعاملات لشركات وارباح وبيع اسهم وغيرها من امتال اشكال التجارة والاعمال المختلفة .لكن مالذى يملكه صديقى هذا ومالذى يساوى اربع مئة مليون دولار تم تحويلها اليه فوضعت فى حسابه وقام هو بدوره بتحويلها الى احد البنوك فى دولة خليجية ! وقد اتيح لى بحكم مانحن فيه من مراجعة واستقصاء كلفنا بها ان اعرف ان للرجل خزانة خاصة ووصية مكتوبة اودعها فى خزانة البنك اوصى الاتفتح الا بعد وفاته باربعة عشر يوما !
صعدت الدماء فى عروقى وكادت رأسى تنفجر حين رحت اتذكر .. هل كان لقاءى به فى المرة الاولى صدفة !؟ . كيف صدفة وللرجل اموال طائلة ككنوز قارون اودعها البنك الذى اعمل به . لقد سحب اموالا ، وحول واودع فى البنك الذى اعمل به .. رحت اتتبع التواريخ متى كان ذلك ....واين هو الان .. هل مازال يعالج .. ؟ لقد مر على الحادثة اكثر من شهرين الان ! لماذا لم ينشر خبر الحادثة التى رأيتها بأم عينى فى اى جريدة . فقط خبر فى موقع على وسائل التواصل على الانترنت انه يعانى من وعكة صحية وانه فى فترة نقاهة .. لامتى ولااين ولا اى شىء ... خبر لاقيمة له .. لاتفاصيل ولاشىء .
وضعت يد تصلبت اصابعها على الجرس حتى جاء عامل البوفيه فطلبت قهوة فى كوب .. وراحت الة الطبع تطبع تقريرا طويلا مليئا بارقام وحسابات وتواريخ واسماء وعناوين ... كان هذا اليوم هو ختام عمل استمر قرابه عشر ايام .. جلسنا فيه جميعا ومعنا اخرون لااعرف بعضهم لكنى اعرف مستشار وزير المالية رجل قيمة وقامة وعلم من اعلام الاقتصاد . والخبير المصرى الدولى الدكتور بهاء النشرتى الذى شرفت يتلقى تدريبا دوليا على يدية ومدير عام البنك الذى حضر من القاهرة .. تكلم من توجب عليه ان يقدم خلاصة عمله خلال الايام الماضية وعلق بعض الحاضرون فى عجالة علة ماقيل ويبدو ان ماتوحب على قوله كان هو فصل الخطاب فقد كنت الوحيد بين هؤلاء الذى كان يعمل حقا فى هذا البنك .. وكنت فى موضع مسئولية وكنت ممن شملهم تحقيق النيابة وتم تبرئة ساحتى ..وكان ماساقدمه لهم هو حقائق وارقام واسماء وعناوين ... استاذنت الجميع ان يتم تخفيض اضاة الحجرة الكبيرة حيث جلس الجميع حول طاولة كبيرة بيضاوية كانت دوما هى مكان اجتماعنا من قبل ثم على جهاز عرض (بروكجتور) صغير اضاء الحائط خلفى

بشاشة صغيرة تعرض ماعلى جهاز اللاب توب ... ارتدى بعض الحاضرين نظارات النظر وحدج الاخرون بانتباه على البقعة المستطيلة المضيئة التى راحت على مدى ربع ساعة تعرض صورا لارقام واسماء وعناوين وتواريخ .. كنت اعلق واوضح وابين واحلل .. كانت الارقام تتحدث معى تؤكد كلماتى .. كانت العناوين تشير بالف اصبع اتهام وكانت الاسماء فجة كاذبة وعناوينها التى اجهدت نفسى بحثا عنها سرابا لاوجود له .. بقعة فساد فى السجل المدنى فى مكان ما جائت بكل هذا الزور . انها فى مدينة ..... حدج الجميع فى صور بطاقات وضعت بجوار بعضها البعض تحمل جميعا اسما ورقما يشير الى مكان واحد . اسما واحدا فقط كان استثنائيا ...

انتهى العرض ... ساد صمت كالقبر .. وعتمة ظلام لايبين فيها شىء الا البقعة التى مازالت مضيئة فى الحائط بجوارى وانا واقف التقط انفاس من كان يعدو طيلة شهور منذ تلك اللحظة التى كنت التقط فيها انفاسى وانا اصعد فى مصعد البيت فى المندرة لاعرف ان احد ما قد اقتحم شقتى ..

شكرنى الجميع بعد ان اضأت المصابيح خلفى فغشينا ضوء ساطع كاشف كنور الحقيقة كان هذا العرض خاتمة اعمال هذا اليوم الا من بضع كلمات لكبار الحاضرين اثنت على ماقدمت ثم اوصت باشياء وقررت ان ترفع الامر الى سلطة اعلى للتشاور واتخاذ اللازم .. طلب مدير عام البنك نسخة من التقرير فااعطيتة نسخة كنت اعلم انه سيطلبها ارفقت فيها فلاشة صغيرة فيها العرض الذى قدمته لتوى .. شكرنى الرجل وحيانى بابتسامه .

كنت فى حاجة الى الراحة وكانت اجازة قصيرة لثلاثة ايام كافية بان تعيد لى نشاطى وتجدد عافيتى التى استهلكها هذا العمل المضى على مدى عشرة ايام

.

****

سافرت مع زوجتى والاولاد الى طنطا ....

احضرت معى ثوبا ابيضا . صليت الجمعة فى السيد البدوى .. جلست فى باحة الدار فى العصر نشوى كيزان الذرة التى احضرتها ام شلبى المراة الطيبة الودودة التى مازالت تنادينى " الاستاذ مصطى بيه" . ام شلبى كانت اول من حمل زوجتى فى يديها حين ولدت قبل ان تحملها امها. هذه المراة ارى فيها كل ماتمثلة هذه الارض الطيبة ضحكتها الصافية المجلجلة على كبر سنها تقاطيع وجهها التى تجد فيها شئيا فى كل وجه ام مصرية فى تلك التى حفظها الصخر منذايام الفراعنة وحتى اليوم هى ام اوجدة فى كل بقعة من هذه الارض فى قراها ومدنها فى شمالها وجنوبها فى وجه تزين بوشم مطروح اوسيناء فى وجوه النساء فى القاهرة والمدن وفى تقاطيع فلاحات الريف البسطاء

تداعبها زوجتى تناديها " اما شلبى " .. تحبها كأمها . كلما زارت اهلها فى طنطا احضرت لها هدية شيئا تحبه تفرح به كثيرا . جلسنا فى الغيط بين الخضرة تناهى الى سمعنا من بعيد ثغاء الغنم ومأماة المعيز .. وصوت عصفور قريب يعزف لحنا واخر يجاوبة سمعت اصوات الطبيعة خرير المياة فى هذه القناية الصغيرة التى ينساب فيها الماء ليسقى الزرع الاخضر اليانع الرية الثانية بعد ان شب عود النبت الطالع .

على مدد البصر لون اخضر يانع بكل درجاتة وزرقة صافية تظللنا خلت الا من بضع سحابات كتتف القطن الابيض .. مر نسيم كرفرفة ثوب حريرى فطيب بهواءه الاجواء وحمل اريج ازهار البرتقال التى تفتحت فى ارض مزرعة قريبة . حطت نحلة على زهرة مجاورة ودارت حلو الزهرة ذات اللون البنفسجى البهيج .. ثم طارت الى اخرى قريبة بلون اخر ...

فى ساعتى كان العصر قد حان كنت قد ابتعدت بعيدا فى هذه الجنة على ارض الله ..

شمرت ثوبى وتوضأت من ماء القناية .. وعند كثيب فى ناحية شجرة بلوط عند ارض كستها سنابل قمح تنتظر حصادا قريبا وقفت باتجاه القبلة ورفعت يدى " الله اكبر " ...

حين عدت الى الدار بعد العصر اخبرنى الاولاد ان ثمة من اتصل بى على هاتفى المحمول ! لقد تركت هاتفى فى البيت . احب الا ازعج نفسى بشىء يقطع على مناجاتى للطبيعة .

كان رقما غريبا ..

دق قلبى .

حين اتصلت على الرقم كان المدير العام للبنك ذلك الرجل الذى حضر اجتماع الاسكندرية كنت اعرفه بطبيعة عملى لم تكن معرفة وثيقة . و الحوار الذى دار بيننا منذ ايام هو اول لقاء بينى وبينه واول حوار بيننا . لعل الرجل يريد ان يستفسر عن شىء فى الاوراق الفلاشا التى كان قد طلبها فاعطيتها له .

طلب الرجل منى طلبا غريبا لم اتوقعة .. اراد ان القاه فى الغد الذى يوافق يوم سبت وهو اخر ايام اجازتى ... ويعنى هذا ان اسافر اليه فى القاهرة . سألنى الرجل . فاخبرته اننى فى طنطا . فتهلل فرحا

-" عظيم يعنى المسافة اقرب" .

فى هذا اللقاء مع مدير عام البنك وقعت على تكليف باستلام عملى فى فرع البنك فى العاصمة البريطانية لندن .

الان وبعد مرور بضعة اشهر اجلس فى صالة الانتظار لطائرة مصر للطيران التى تأخر موعد وصولها ساعة كاملة فى انتظار زوجتى واولادى حيث استطعت ان ارتب انتقالهم للعيش معى فى انجلترا ...

خلال ساعة ونصف فى صالة الانتظار فى مطار هيثرو تذكرت كل شىء مر بى احببت ان اكتب تجربتى وماحدث لكن اشياءا لااعرفها مازالت غامضة واناس كانهم ماكانوا . لم يعد لهم وجود .. ترى هل ابعدونى حين ارسلونى الى لندن ام هى تصاريف القدر ودعوة استجيب لها لعل فى البعد خير ..

كانت تجربة جديدة غريبة وصعبة ايضا لكنها كانت ايضا ناجحة ومفيدة لم اشعر بالغربة وحولى مصريون يجعلون من لندن اى مكان تفتقدة فى الاسكندرية ومصر .كانت اسر المصريين هناك تجعلك تشعر كأنك فى بحرى حين تاكل السمك او فى قرية فى اعماق الريف حين تفوح رائحة طواجن البامية وقدحة الملوخية وحين تجد الممبار والمحشى .....الشيشة المصرية فى ركن الحديقة ... واغنية ام كلثوم على شاى معمول على الفحم .. وضحكات مجلجلة على نكات لم اسمعها فى مصر ..

تذكرت احد مشهدين رأيتهما فى طنطا كان غريبا وفريدا ... كانت كل الاراضى تروى بماكينات الرى الا قطعة ارض كان فى ناحية منها ساقية خشبية قديمة كانت ماتزال تعمل ! ربط اليها فحل ثور وقد غميت عيناه راح يدور فى حركة دائبة دائرية رتيبة ...

كان المشهد الاخر لماكينات حصاد القمح العملاقة التى رأيتها قبيل سفرى للقاهرة للقا ء المدير العام ..كانت ماكينة عملاقة تجز القمح بعجلة عملاقة فى مقدمتها ثم تلتهمه فى باطنها فتخرجة من ناحية قمحا خالصا ومن ناحية اخرى قشا وتبنا . كان الصبية والكبار قد وقفوا يشاهدون فى رهبة هذا الوحش الآلى الذى ترك الارض خلفة مستوية فى دقائق معدودة .

لن يخل زمن من ثور يكدح وهو مغمض العينين يدور فى محله يقطع مشوارا كبيرا .. الف الف خطوه لكنها فى النهاية فى ذات المكان . نجرى فى اماكننا . كثير منا هكذا .

لن يخل زمن من طحين ... ولن يخل زمن من خير ومال وحاجة للناس لاتنفد . لن يخل زمن من صراع تدور رحاة كما تدور ساقية الثور . صراع يغلو صخبه كما يعلو صوت ماكينة الطحين او ماكينة جمع القمح .

وكثر منا ايضا ليس لهم فى الثور ولا فى الطحين . .

تمت

زكريا الشافعى

الاسكندرية فى ٣-٢-٢٠٢٣